خطبة صلاة الجمعة 29/ 4/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(القناعة عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بها)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة الثلاثون في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي ﷺ، وكيف نتحلّى بها).

وبما أننا في رمضان فقد اخترت أخلاقاً للنبي ﷺ نحتاجها في الأوقات عامة ونحن لها في رمضان أحوج، تحدثت الخطبة الأولى عن الجود والثانية عن الإحسان إلى الخلق والثالثة عن نفع الآخرين،

وعنوان خطبة اليوم: **القناعة عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بها.**

القناعة هي الرضا بما قسمه الله لك. قال الجاحظ: هي الاقتصار على ما سَنَحَ من العيش، والرِّضا بما تسهَّل من المعاش.

ولا تتعارض القناعة مع الطموح، بل هي صمام أمانه. فقد يسعى الإنسان حثيثاً لطموحه لكنه لا يصل إلى كل ما يتمنى، فتأتي القناعة لتتوج ذلك المجهود بالرضا والقبول بما آلت إليه الأمور.

فالقناعة الصحيحة هي التي تكون بعد بذل الجهد كله، وليست التي تكون بديلاً عنه.

وإذا كان حديث اليوم عن القناعة عند النبي ﷺ وكيف نتحلى بها، فإليكم هذه المواقف من السنة المطهرة:

1- روى ابن ماجه عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه.

وإذا أنا بقبضةٍ من شعير نحو الصاع، وقرظ في ناحية الغرفة، وإذا إهاب معلق (الإهاب: الجلد) فابتدرت عيناي.

فَقَالَ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟»، فقلت: يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثَّر في جَنبِكَ، وهذه خزانتك لا أرى إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك.

قَالَ: **«يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»**.

إنها صورة من صور القناعة عند النبي ﷺ ورضاه بما قسم الله له، من دون قعود عن السعي.

2- روى الإمام الترمذي عن حكيم بن حزام، قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: **«يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»**.

فقال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا «فكان أبو بكر، يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله» ثم إن عمر، دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: «إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه»

فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس شيئاً بعد رسول الله ﷺ حتى توفي.

إنها صورة من صور تعليم النبي ﷺ أصحابه القناعة والرضا بما قسم الله، من دون قعود عن السعي.

3- روى أبو داود عن أنس بن ملك رضي الله عنه أن رُجلاً من الأنصار «**أتى النبيَّ ﷺ يسأله، فقال: أمَا في بيتك شيء؟ قال: بَلَى، حِلْس نَلْبَسُ بعضَه، ونَبْسُطُ بعضَهُ، وقَعْب نَشْرَبُ فيه من الماء، قال: ائتني بهما فأتاه بهما، فأخذهما رسولُ الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: [أنا] آخذها بدرهم، قال رسول الله ﷺ: مَنْ يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثاً قال رجل: أنا آخذهما بدرهَمَيْنِ، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاريَّ، وقال: اشَترِ بأحدهما طعاماً، فانبِذْه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُّوماً فائْتِني به، فأتاه به، فشَدَّ فيه رسولُ الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: اذَهبْ فاحتَطِبْ وَبِعْ، ولا أرَيَنَّكَ خَمْسة عشر يوماً، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرةَ دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال له رسولُ الله ﷺ: هذا خَير لك من أن تجيء المسألة نُكْتَة في وجهك يومَ القيامة، إن المسألة لا تَصْلُحُ إلا لثلاث: لذي فقر مُدْقِع، أو لذي غُرْم مُفْظِع، أو لذي دم مُوجِع**»

إنها صورة من صور تعليم النبي ﷺ أصحابه القناعة بما رزقهم الله والاجتهاد في السعي.

والحاصل – أيها الإخوة- أن القناعة كانت خلق النبي ﷺ وكان معروفاً بها، والمتوقع أن تكون القناعة خلقك وأن تكون معروفاً بها.

- متزوجة من طبيب دَيِّنٍ فَتِيٍّ يُغْرِقُها بالكلام الجميل، لكنها تطلب منه الطلاق وتعتذر إليه بأنها لاتستطيع تَحَمُّلَ شَظَفَ العيشِ معه لأنَّ دخْلَهُ لايغطي متطلباتها التي تعوَّدَتها عند والدها.

من قنع بما آتاه الله عاش ملكاً بين خلق الله، ومن فاتته القناعة كان كالذي يأكل ولا يشبع. و«**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنِ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**».

- في خضم الأزمة بقي على رأس عمله يتقاضى راتباً مقبولاً، ويسكن في بيته من دون أن يدفع الأجرة، ولكنَّ زوجتَه تريد منه أن يسافر إلى بلد أوربي – كما الآخرين- ثم يُلْحِقُها والأولادَ به، لعلهم ينعمون بمزايا السكنى في تلك البلاد، ومع أنه وحيد والديه فقد عزم على السفر.

من قنع بما آتاه الله عاش ملكاً بين خلق الله، ومن فاتته القناعة كان كالذي يأكل ولا يشبع. و«**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنِ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**».

- في حفلة العُرْس قدَّموا طعامَ العَشَاء على مائدةٍ مفتوحة، ذهب ليملأ الطبقَ بكمياتٍ كبيرة وأنواع كثيرة من الطعام لم يستطع إكمالها لأنها فوق الاستطاعة، فترك في الطبق الكثيرَ من الطعام الذي لن يستفيد منه غيره.

من قنع بما آتاه الله عاش ملكاً بين خلق الله، ومن فاتته القناعة كان كالذي يأكل ولا يشبع. و«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنِ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

– اشترى لها زوجها ثوباً يتناسب مع دخله لتحضرَ به حفلَ زفافِ قريبتها، وذهبتْ الحفلَ مسرورةً ولكنها عادت مقهورة لأنها وجدت الكثيرات غيرها يرتدين ما هو أجمل من ثوبها، وباتت ليلتها معاتبةً زوجها نادبةً حظَّها متألمةً لمصابها.

من قنع بما آتاه الله عاش ملكاً بين خلق الله، ومن فاتته القناعة كان كالذي يأكل ولا يشبع. و«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنِ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

أيها الأخوة:

مما يساعد على التحلي بخلق القناعة أربعة:

أولها: الإكثار من ذكر الله تعالى:

فمن أكثر من ذكر الله قرَّبه إليه، وعرَّفه حقيقة الدنيا، وأعلمه أن الله يعطيها من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا من يحب.

ومن أكثر من ذكر الله فتح عليه من باب الفيض الروحي والإيماني ما يستصغر به نعيم الدنيا بأجمعه. والذي نفسي بيده للحظة أُنْسٍ بالله تساوي الدنيا وما عليها.

ومن أكثر من ذكر الله زاد حباً لله، والمحب يرى قليل حبيبه كثيراً، فشكَرَه على نِعَمِهِ واستعظم ما أولاه من العطايا والهبات.

ثانيها: النظر إلى من هو أسفل منك في شؤون الدنيا:

قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» [البخاري ومسلم].

من هنا كان مناسباً جداً أن تزور مع زوجك وأولادك المساكين في بيوتهم، وكان مناسباً جداً أن تخرج إلى الحج فتجالس عامة الخلق في عرفات وفي أفواجهم وألا تنأى بنفسك عنهم.

كل هذا لترى نِعَمَ الله عليك ولتقنع بما رزقك ولترضى بما أعطاك.

ثالثها: صحبة أهل القناعة والتعفف

رابعها: اعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك.

فمن عرف ذلك وآمن به اطمأنت نفسه، وهدأ باله، وقنع بما أعطاه الله.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه ﷺ وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

والحمد لله رب العالمين